الفصل الثاني:

رغم الحواجز والمخاطر: تجربة منسقة صحافية في غزة

أميرة أحمد حرودة

كانت البداية مختلفة. فأنا فلسطينية ولدت في ليبيا عام 1983 حيث عاشت عائلتي في المنفى. فبعد تأسيس إسرائيل هجّر العديد من الفلسطينيين من أرضهم. وبلغ عدد من أجبروا على المغادرة بعد حرب 47/48 نحو المليون، ومئات الآلاف بعد حرب 1967[11]. وبعد نزاع متواصل وانتفاضات شعبية، وافقت إسرائيل أخيراً على السماح لبعض الفلسطينيين بالعودة إلى أرضهم مقابل الاعتراف بدولة إسرائيل.

في عام 1993، نشأت السلطة الفلسطينية بموجب اتفاقيات أوسلو. ومع بلوغي الثالثة عشر، في مطلع العام 1996، أجريت أول انتخابات للمجلس التشريعي الفلسطيني. وفي العام نفسه، عادت عائلتي إلى فلسطين وحينها بدأ فصل مختلف كلياً من حياتي.

حين وصلت إلى غزة، لم أجد الحرية التي نعمت بها في الخارج. فآثار الاحتلال تسللت إلى جميع مناحي الحياة، وتركت سنواته الطويلة، إلى حد ما، أثراً سلبياً هائلاً على المجتمع الغزّي الذي كان أكثر انفتاحاً في فترة سابقة. لقد دمّر الاحتلال العسكري النسيج الاجتماعي.

كنت أحلم في طفولتي بأن أقود طائرة، وأسافر بحرية من بلد إلى آخر، ولكن كل ما تمنّيته وحلمت به تلاشى حين عدنا إلى غزة. فالمدينة كانت محاطة بإسرائيل من الأرض والبحر وحتى من الجو. أما على الصعيد

[11] موقع «فلسطين في الذاكرة»: http://www.palestineremembered.com (تم الولوج إليه في ٤ تموز/يوليو ٢٠١٧).

الشخصي، اصطدم سلوكي بالتقاليد الاجتماعية. وببساطة لم يسمح للفتيات على ما يبدو بتحقيق طموحاتهن في ذلك الوقت. ولكنّي لم أقبل ذلك الواقع، وقد ولّد صراعاً شاقاً بيني وبين التقاليد السائدة.

في عام 2000، بدأت العمل مع "تلفزيون فلسطين" التابع للحكومة، كمقدّمة برنامج للأطفال. وكنت أكتب لصالح مجلّتين جامعيتين. وخلال جميع أنشطتي، حاولت أن أغيّر الطريقة التي ينظر فيها الناس إلى الفتيات والنساء، وأردت أن أقلّص القيود المفروضة علينا.

في الفترة اللاحقة وتحديداً بين عامي 2004 و2005، زارت غزة العديد من المؤسسات الدولية الداعمة للقضية الفلسطينية. وأمضيت معظم وقتي مع الممثلين عنها، محاولة فهم وجهة نظرهم تجاه بلادي وتجاه النزاع الفلسطيني الإسرائيلي. واكتشفت أن معظمهم لم يكن على اطلاع كاف بما يجري في منطقتنا. وأدركت بشكل خاص أنه كان من الضروري لفت نظر وسائل الإعلام الأجنبية إلى القصص التي لا يُسلّط عليها الضوء في غزة. وفي العام 2005، حين احتاجت صحافية ألمانية من "دير شبيغل" إلى منسقة محلية، لم أتردد في العمل معها. أتاحت هذه التجربة لي دخول عالم المراسلين الدوليين. ومنذ ذلك الوقت بدأت تطوير شبكة معارف، والتقيت العديد من الصحافيين الأجانب الآخرين، لأصبح أول منسقة صحافية في غزة.

تتّسم تغطية الحرب بالخطورة بكل المقاييس. كما أن إرسال الصحافيين الدوليين إلى مناطق حرب أو نزاع يعدّ انتحاراً إذا لم يكونوا عارفين بطبيعة المنطقة. وهذا يعني أن يعرفوا أموراً أساسية مثلاً: كيف تدخل بلداً معيناً من الجو أو البر؟ ما هي أماكن الإقامة؟ بمن يمكن الوثوق؟ من سيعرّف عنك ويصلك بشخصيات رئيسية على الساحة السياسية؟ كيف ستتواصل مع الناس إن لم تكن تتحدث اللغة المحلية؟ هذه الأسئلة والكثير غيرها يمكن أن يجيب عنها زملاء صحافيون أو أصدقاء. غير أنه في معظم الحالات، لا يمكن إعداد التقارير الإخبارية التي ينشرها المراسل الأجنبي من منطقة تشهد حرباً مثل قطاع غزة دون الاستعانة

بالمنسقين الصحافيين، أي أولئك الأشخاص الذين يسهلون عمل الصحافيين الذين يغطون أحداثاً في بلدان أجنبية. وقد يكونوا أحياناً صحافيين محليين أو مترجمين أو أشخاصاً لديهم شبكة معارف ويتمتعون بمعرفة جيدة بالمنطقة. بذلك يكون المنسق الصحافي عيون وآذان الصحافيين الأجانب الذين يعملون خارج نطاق خبرتهم. فيكون هؤلاء الأشخاص حلقة وصل بين الصحافيين والقصص التي يغطونها والناس والمعارف الذين يحتاجون إليهم لإجراء التغطية.

الحواجز الجندرية

ليس سهلاً أن يكون المرء منسقاً صحافياً في غزة، فكيف الحال إذا كان امرأة؟! فإضافة إلى المسؤولية الكبرى التي ينطوي عليها هذا العمل، يولّد وجود امرأة في هذا الموقع الكثير من الأحكام المسبقة. وفي الواقع، لم يكن الناس يستسيغون العمل مع الأجانب سيما وأنّ الناس في تلك الفترة كانوا يعتقدون بأنهم يخدمون مصالح إسرائيل. ولم يتوقف الأمر عند ذلك، فعملي معهم حتى ساعة متأخرة من الليل مستنكر ثقافياً كوني امرأة. وبالفعل حاول معظم أقاربي إقناع والدي بإيقافي عن العمل. غير أن والدي فاجأهم بردة فعله إذ كان دائم التشجيع والدعم، وكان أحياناً يرافقني خلال ساعات العمل الليلية أو يطلب من شقيقي ذلك. الصحافة هي مهنة الرجال في مجتمعي، كما أن بعض الناس في غزة لا يصدقون أننا نحن النساء قادرات على العمل في هذا المجال. وبالفعل عرّضني العمل مع صحافيين رجال للمضايقات ولكنّي أثبتّ مع الوقت مجدداً أنني قادرة على النجاح حتى في الأوقات التي لم ينجحوا هم فيها. وغالباً ما يغطي التمييز ضد المرأة حتى الآن على الجدارة والقدرات التي تتمتّع بها.

غير أن العمل كمنسّقة صحافية لا يخلو من الفوائد في البيئة التي أعمل فيها. فالنساء يستطعن الدخول إلى بعض الأماكن والوصول إلى بعض الأشخاص بشكل أفضل من الرجال. على سبيل المثال، من السهل عليّ الوصول إلى العائلات وجعل النساء والأطفال يفتحون قلوبهم لي. وهذا

تقول أميرة أحمد حرودة إنها حين بدأت العمل كمنسّقة صحافية في العام 2005، لم يكن من نساء أخريات يعملن في هذا المجال في غزة. الصورة من إدمي فان ريجن.

يتطلب تعاطفاً ورغبة صادقة في الإصغاء، ولكن لو كنت رجلاً، مهما بلغت من التفهّم والإنسانية، لن يقبل بعض الناس التحدث إليّ كما لو كنت امرأة.

لحسن حظي أيضاً أن زوجي يدعمني كثيراً ويساندني في جميع الأوقات حتى لو تعرّض أحياناً للانتقاد من المجتمع لكونه متزوجاً منّي ويسمح لي بالعمل كمنسّقة صحافية. فالمجتمع الغزّي المحافظ، يعتبر أن عائلتنا تكسر القوالب الاجتماعية لأن الرجل (زوجي) هو الذي يمكث في المنزل ويرعى الأطفال أثناء تغطيتي الحرب والنزاع. إنه سندي، ودائماً أزوّده بمعلومات الاتصال بالوسيط بيني وبين القصة الصحافية للتواصل معه في حال لم أتّصل أنا كل ساعتين وفقاً لاتفاقنا، ولكي يتحقق إن أصابني أي مكروه. في الواقع، يكمن الجزء الأصعب من عملي في ترك زوجي في المنزل مع الأطفال أثناء تغطيتي قصص الحرب.

العمل في ظل الحرب والاحتلال: خطر مضاعف ودائم

كفلسطينية تعيش تحت الاحتلال، أتعاطف أوّلاً وأخيراً مع عائلتي، وكمنسّقة صحافية لديّ مسؤولية تجاه بلدي وشعبي. هذا يعني أنني لن أوافق دائماً

على العمل على قصص حساسة من شأنها الإساءة إلى سمعة شعبي. كما عليّ أن أحمي مصادري أثناء عملي على قصة صحافية، فحين يكون نطاق عملك ضمن منطقة نزاع، يمكن أن تتعرض مصادرك للقتل إذا تحدثت. لذلك أحاول جاهدة عدم المخاطرة بحياة أي شخص من أجل قصة صحافية، ويجب أن أكون حذرة تجاه الأشخاص الذين أعمل معهم. على سبيل المثال، عليّ أن أحذر من الصحافيين الإسرائيليين الذين ينتحلون صفة صحافيين غربيين. فغالباً ما يرغب الناس الذين يعارضون حقوق الشعب الفلسطيني، بإلصاق صورة سيئة بنا على الصعيد الدولي. وهؤلاء يريدون تصويرنا على أننا إرهابيون، وأن غزة مصدر الشر والرجعية. لذلك لن أسمح لنفسي بأن أكون أداة في يد صحافيين لديهم مآرب سياسية واضحة. في الوقت نفسه لا أستطيع أن أخفي بالطبع بعض الحقائق السلبية في هذا المجتمع. السياق أساسي ولكنّك كمنسّق ليس لديك سلطة تحريرية أو رقابة على ما ينشر لذلك يجب أن تختار بعناية الأشخاص الذين تعمل معهم والقصص التي تغطيها.

من الأساسي أيضاً أن أوثّق كل ما يحصل وأن ألتزم الصدق والحياد. وإحدى الطرق لبناء مقاربة محايدة والمحافظة عليها، هو عدم الانحياز وقراءة ما بين السطور أثناء نقل معلومات من تقارير إخبارية لأن كل قناة تلفزيونية محلية وكل صحيفة وكل إذاعة لديها وجهة نظر مختلفة، وغالباً ما يكون لديها أجندة مختلفة أيضاً.

أميرة أثناء العمل مع المراسلة الهولندية مونيك فان هوغستراتن خلال زيارة إلى المنطقة الحدودية. الصورة من إدمي فان ريجن.

غطّيت كل الحروب الإسرائيلية على غزة وكل الهجمات واسعة النطاق التي شنّتها إسرائيل على القطاع. لم يكن ذلك بالأمر السهل، إذ نجوت من غارات جوية واغتيالات موجّهة وتفجيرات سقط فيها آلاف الضحايا. لذلك أعتبر نفسي محظوظة ولكنّ ذلك يأخذني إلى نقطة أخرى بالغة الأهمية ألا وهي الحماية.

عُدّة الحماية

• من الأساسي أن تتزوّد بمعلومات عن الحرب أو النزاع الذي تغطيه لأن ذلك سيساعدك في تحديد العُدّة المناسبة للحدث. على سبيل المثال، وتبعاً للخطر الذي يمكن أن تتعرّض له، قد تحتاج إلى ارتداء ملابس واقية من المواد الخطرة مثل قناع غاز أو سترة واقية من الرصاص.

• احرص دائماً على استخدام نوع من الدرع الجسدي حتى لو كنت تغطّي تظاهرات عنيفة. ويوصى عادة باستخدام خوذة أيضاً.

• ولا تنس أن أي عُدّة حماية ليست مضمونة، فحتى مع السترة الواقية والخوذة قد تتعرض للإصابة. تنبّه أيضاً إلى أن عدّة الحماية التي قررت استعمالها قد تجعلك تبدو - خطأ - هدفا مما يزيد من خطر تعرّضك للأذى.

يعد غياب الحماية، وهو الخطر الدائم المحدق بالصحافيين المحليين في بيئات النزاع، جزءاً صعبا من عملي، فمعظم المجموعات التي أعمل معها تأتي إلى غزة في مهمة قصيرة في حين أعيش هنا طوال الوقت. في الواقع لا يغيب الخطر عن حياتي وحياة زملائي أبداً. ونحن لا نستطيع العودة إلى بلادنا مثلاً واتخاذ ملاذ آمن والاسترخاء لأن غزة هي بلادنا. ولم يكن لدينا حتى أي عدة حماية أساسية كدرع للجسد أو خوذة للرأس خلال الاجتياحات الاسرائيلية للقطاع.

بالإضافة إلى ذلك، فإن العمل كمنسّق صحافي مع مراسلين دوليين، يزيد من الصعوبات. ففي غزة، لا يمكن للمراسل الأجنبي ببساطة أن يذهب بعيداً في أي قصة صحافية من دون منسق صحافي. وتفرض السلطات أن يكون لديك منسّق محلي لديه موافقة ليقوم بمساعدتك وتحمل مسؤولية

الاهتمام بك. وغالباً ما يتحمّل المنسّق المسؤولية عن عمل الصحافيين الزائرين الذين غالباً ما يوظفونه لفترات قصيرة، ما قد يرتب عليه تداعيات عظيمة إذا سارت الأمور بشكل خاطئ.

يستهدف القصف معظم مناطق غزة سواء كانت عسكرية أو مدنية. وذلك يعني أنه خلال الهجوم، يستهدف العنف معظم القطاع على مساحة 360 كيلومتر مربع ويؤثر على عدد كبير من سكانه البالغ عددهم 1.7 مليون. لذلك فإن محاولة التوفيق بين كل ما يجري بشكل متزامن أثناء حماية الصحافيين الذين ترشدهم وتوجههم، تتطلّب الكثير من الجهد وتعرّضك كمنسّق للكثير من الإجهاد.

من الضروري أيضاً أن يعرف المنسّق الميداني جيداً وأن يحدد دائماً موقع الدخول والخروج في أي مكان يستهدفه القصف أو أي منطقة يغطّي فيها حدثاً ما. فإذا شعرت أن المنطقة خطرة جداً بما لا يسمح للصحافي الأجنبي بمرافقتي، أشرح الوضع له وأتركه يقرر. فإذا قرر الانضمام إليّ لا أفكّر أبداً بالمخاطرة التي يقوم أو نقوم بها وإلاّ أضع نفسي ومن معي في خطر، لأني سأصاب بالهلع ولا أعود قادرة على التفكير الصحيح أو التصرّف في الوقت المناسب.

ثمة اعتبار آخر يجب التنبّه إليه وهو بناء شبكة صلبة من المعارف المحليين. فهذا شرط أساسي لتكون منسقّاً ناجحاً. وهذا أمر مهم من أجل تطوير علاقة حقيقية وإنسانية وصادقة مع الناس تتجاوز أهدافك الصحافية، وتشجعهم على أن يفتحوا لك قلوبهم ويخبروك قصصهم. فهذه الفرصة التي يتيحونها لك ستعطيك معلومات لا تتوفر لأي كان. ولكن بالطبع هذا الأمر لا يخلو من المسؤولية؛ فهؤلاء بشر مثلي، وليسوا ضحايا ولا مآسي أو أرقاماً، ونحن جميعاً فلسطينيون نعيش في غزة. ثانياً، وجود هذه الشبكة من المعارف هو بمثابة دعم احتياطي. فإذا واجهت مشكلة في أي مكان، يمكنني أن أجد شخصاً ألجأ إليه ليساعدني ويكون أهلاً للثقة. وغني عن القول إنه يجب أن تحرص دائماً ألّا تعرّض أياً من هؤلاء للخطر.

مـن مهامـي كمنسّـقة أيضـاً، أن أعمـل علـى زيـادة الوعـي لـدي المراسـلين بالمخاطـر التـي تنطـوي عليهـا تغطيـة بعـض القصـص. فعلـيّ أن أدق ناقـوس الخطـر إذا دخلنـا فـي مواضيـع أو جوانـب قـد تغضـب مـن يتولّـون السـلطة فـي غـزة. ففـي النهايـة، يقضـي عملـي بتقليـص المخاطـر التـي قـد يتعـرض لهـا الصحافـي الأجنبـي فـي أرض أجنبيـة، ويقـع جـزء كبيـر مـن المسـؤولية علـى عاتقـي كمنسّـقة صحافيـة.

الدوافع

فـي مقابـل كل ذلـك، ثمـة مـا يبـدد كل الصعوبـات التـي تواجهنـي كامـرأة صحافيـة ومنسـقة صحافيـة فـي غـزة وهـو أنّنـي أسـتطيع إخبـار العالـم بشـأن مـا يحصـل هنـا، ومـا الـذي نعيشـه ومـا الـذي يعبّـر عنّـا بشـكل أفضـل ومـا الـذي نعانـي منـه بشـدة.

بنيـت ولا أزال شـبكة كبيـرة مـع المجتمـع المدنـي ومـع مختلـف الفصائـل الفلسـطينية، وهـو مـا سـمح لـي بتكويـن صـورة شـاملة وثاقبـة عمّـا يحصـل فـي مدينتـي ولشـعبي. ورغـم أن الأصعـب فـي عملـي هـو مشـاهدة معانـاة النـاس إلاّ أنّ علـيّ أن أخبـر قصصهـم. فهـذا التزامـي تجـاه نفسـي وتجـاه مجتمعـي. القصـص التـي أسـمعها والصـور التـي أراهـا بـأم عينـي حقيقيـة ولا يمكننـي نسـيانها. ومـا زلـت أتذكـر تفاصيـل كل قصـة تركـت أثـراً عميقـاً فـي نفسـي. وأنـا حتـى اليـوم لا أسـتطيع العثـور علـى الكلمـات المناسـبة لوصفهـا.

يعرقـل الحصـار الإسـرائيلي المفـروض علـى قطـاع غـزة جميـع نواحـي الحيـاة هنـا، تـاركاً أثـراً وخيمـاً علـى الاقتصـاد والثقافـة وحريـة التنقّـل وعلـى النـاس أنفسـهم. والضائقـة الاقتصاديـة هـي دافـع أساسـي لكثيريـن للعمـل فـي هـذا المجـال رغـم المخاطـرة اليوميـة التـي يعرضـون أنفسـهم لهـا. وبالفعـل يعمـل كثيـرون اليـوم كمنسّـقين صحافييـن، ولكننـا كل يـوم نعيـش يومـاً جديـداً آملين بـأن تتحسّـن الأمـور.

فـي الختـام لا بـدّ مـن القـول إنـه بالرغـم مـن تلـف معظـم أرشـيفي بسـبب الحـروب، فلـي ذكريـات حزينـة وسـعيدة فـي كل زاويـة فـي غـزة ولا يوجـد مـكان واحـد لا يذكرنـي بعائـلات وأشـخاص التقيـت بهـم.

أميرة مع طفليها ليان وآدم في حفل عيد ميلاد على الشاطئ. الصورة من إدمي فان ريجن.